

الفصل الثالث

النمو المعرفي، وتكليف الطفل مع الوسط الاجتماعي الراشد

جان بياجيه نموذجاً

[تحليل نص]

استفادات التربية، وطرائق التدريس من نتائج العلوم الأخرى، وبخاصة علم النفس، وعلم الاجتماع، ولقد كان لعلم النفس الأثر الكبير في ميدان التربية، ويرد رفض التربية الحديثة لقوالب التربية القديمة إلى معطيات علم النفس، وبخاصة علم النفس التكويني الذي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بدراسة تطور البنيات الذهنية عند الطفل منذ مرحلة الرضاع إلى مرحلة المراهقة.

تعد نظرية بياجيه من أكثر نظريات النمو المعرفي شيوعاً في ميادين علم النفس، ومن أكثرها تأثيراً في المنحى المعرفي [العقلي] للتعلم، إذ «يرى بياجيه أن نظريات النمو المعرفي الكلاسيكية تأخذ في حساباتها ثلاثة جوانب أساسية، تساهم في تشكيل خبرات الفرد، وهي، النضج البيولوجي، والتفاعل مع البيئة الطبيعية، والتفاعل مع البيئة الاجتماعية، ويعتقد بياجيه أن هذه النظريات تهمل عاملاً رابعاً أساسياً في النمو يدعوه بالتوازن، ويعمل على تنسيق العوامل الثلاثة الأخرى» [نشواتي، عبد المجيد: ١٩٨٥، ١٥١].

لقد كان التلقين اللفظي قوام التربية التقليدية، إذ يمارس فيه الراشد فرض معارفه على الناشئة، وكان دور التلميذ هو استظهار تلك المعلومات، دون أن يقيم الأول وزناً لقدرات المتلقي العقلية، والنفسية، وهذه الطريقة آفة التعليم التي مازالت تمارس من لدن بعض المعلمين حتى يوم الناس هذا.

إن المدرسة التقليدية تفرض على التلميذ عمله، فهي تجعله يعمل، ولا شك أن الطفل يستطيع إبداء قسط كبير أو قليل من الاهتمام بهذا العمل، ويبدل فيه مجهوداً شخصياً، وإذا كان المعلم مربياً جيداً، فإن التعاون بينه، وبين تلاميذه قد يترك لهؤلاء هامشاً لا يستهان به للنشاط الحق، غير أن منطق النظام يجعل النشاط الفكري، والمعنوي للتلميذ خاضعاً لإرادة

غيره، ومرتبطة على الدوام بالإكراه من طرف المعلم، إما بشكل لا شعوري، وإما بالرضوخ الطوعي لهذا الإكراه، وعلى عكس ذلك، تتوجه المدرسة الجديدة إلى النشاط الحقيقي والعمل التلقائي، القائم على الحاجة والاهتمام الشخصي للطفل، وهذا لا يعني، كما أكد على ذلك جيداً كلابريد «أن التربية النشطة تتطلب من الأطفال أن يفعلوا كل ما يشاؤون، بل تريد منهم أن يكون ما يفعلونه عن رغبة منهم، وأن يتحركوا لا يحركوا» إن الحاجة، والاهتمام الناتج عن الحاجة هو العامل الذي يجعل من رد الفعل فعلاً حقيقياً، فقانون الاهتمام هو إذن المحور الوحيد الذي يجب أن يدور حوله النظام التربوي برمته.

بالطبع تطورت التربية الحديثة موجهة انتقاداتها للطريقة التقليدية التي سادت ردحا من الزمن، ومازات آثارها مستمرة إلى يوم الناس هذا في مدارسنا. ولقد كان لعلم النفس التكويني ونتائجه الفضل في التغيير الجذري للطريقة السابقة، كما كان حافزاً للتغيير الذي حدث في التربية.

لقد أخذ علم النفس التكويني بعداً جديداً على يد «جان بياجيه» الذي استطاع بمساعدة علماء من مختلف الاختصاصات أن يحقق نتائج هامة في شرحه لأطوار نشوء الذكاء عند الطفل، وضرورة تكوين البنيات الذهنية الأساسية عنده، فالطفل لم يعد ملكة جاهزة، بل ينشأ عبر مراحل تبدأ من مرحلة الذكاء الحسي، الحركي، حيث ينعدم الفكر، مرحلة الفكر الحدسي، ثم إلى مرحلة المنطق العملي المرتبط بالعمل اليدوي في الأشياء، وأخيراً المنطق الصوري القائم على الاستنباط والتجديد. وكانت إحدى الأفكار الأساسية التي قامت عليها التربية الحديثة، المرتبطة بعلم النفس هي: مراعاة هذه العوامل في العملية التعليمية.

وسنحاول هنا شرح العلاقة بين التربية وعلم النفس، بل كيف استفادت التربية من مكتسبات علم النفس، ولعل المفكر والعالم الكبير «جان بياجيه» هو خير من نستفيد من غنى عطاءاته وغزارة تنوعه واهتماماته في علم النفس والمنطق والبيولوجيا والأبستمولوجيا، وعلم الاجتماع، والفلسفة والرياضيات، وغيرها.

لقد نتج عن اهتمامات «بياجيه» في هذه الفروع المعرفية - على تنوعها وتداخلها - خلق لغة خاصة تتناول هذه الفروع من الداخل وعن عمق إدراك ومعرفة، وبذلك تمخض عنه فكر كان له عظيم الأثر في قرائه في الشرق والغرب.

- ولد بياجيه في «نوشاتيل» السويسرية عام ١٨٩٦، نشر أول مقال علمي وهو في العاشرة من عمره بعنوان [عصفور مُغرب]، وحصل على الدكتوراه في علم الحيوان من جامعة «نوشاتيل» عام ١٩١٨م

- من مؤلفاته: «اللغة والتفكير عند الطفل» (١٩٢٣)، «تصور العالم عند الطفل»، طبع في باريس عام ١٩٢٦، ونشرت له دار دولاشو ونستلي، نوشاتيل، باريس: «نشأة الذكاء عند الطفل» وعن الدار نفسها صدر له «بناء الواقع عند الطفل، وتالت الإصدارات: تطور مفهوم الزمان عند الطفل» ١٩٤٦م، وعلم نفس الذكاء، ١٩٤٧ م، وفي عام ١٩٥٠ صدر «مدخل إلى الأبستمولوجيا التكوينية: (١) الفكر الرياضي، (٢) الفكر الفيزيائي، (٣) الفكر البيولوجي، والفكر السيكلوجي، والفكر السيولوجي» وهذه من منشورات فرنسا الجامعية، باريس.

- في عام ١٩٥٧م إلى ١٩٧٣ صدر [٣٠ مجلدا] تحت عنوان: «دراسات في الأبستمولوجيا التكوينية»

- كتب في حكمة الفلسفة وأوهامها، والبنوية، وأبستمولوجيا علوم الإنسان، وعلم النفس والابستمولوجيا ١٩٧٠، ونظريات اللغة، نظريات التعلم، وهو نقاش بين بياجيه وشومسكي ١٩٧٩.

وقد توفي بياجيه في السادس عشر من أيلول سبتمبر ١٩٨٠ م.

تنقل في العمل فشغل أستاذا للفلسفة بجامعة نوشاتيل، وأستاذا لتاريخ الفكر العلمي، وعلم النفس التجريبي بجامعة جنيف، ومديرا مساعدا لمعهد «روسو»، وعمل أستاذا لعلم النفس الطفلي بجامعة السوربون بباريس، كما أسس المركز الدولي للأبستمولوجيا التكوينية بكلية العلوم، بجنيف.

النص

«إن العمل التربوي معناه تكييف الطفل مع الوسط الاجتماعي الراشد، أي تحول التشكل النفسي. البيولوجي للفرد وفقا لمجمل الحقائق المشتركة التي ينسب لها الوعي الجماعي قيمة ما. فللعلاقة التي تنشأ في التربية إذن حدان: الفرد في صيرورة نموه من جهة،

ومن جهة أخرى: القيم الاجتماعية والثقافية والأخلاقية التي على المربي أن يلقنها له، والراشد باعتباره يدرك العلاقة من زاويته الخاصة لم يفكر في البداية إلا في العنصر الثاني، فاقصر على تصور التربية وكأنها مجرد نقل للقيم جيلا عن جيل، واهتم المربي أولا بأهداف التربية أكثر من اهتمامه بتقنياتها، أي بالرجل الكامل أكثر منه بالطفل وقوانين نموه، وذلك إما عن جهل، وإما بسبب التعارض بين تلك الحالة الطبيعية التي يوجد عليها الفرد، وبين الضوابط المجتمعية.

وهكذا انساق المربي، ضمنا أو صراحة إلى اعتبار الطفل، إما كرجل صغير يجب تعليمه وتهذيبه أخلاقيا، والعمل على مماثلته مع النماذج الراشدة بأقصى سرعة ممكنة، وإما كتجسيد لمختلف الخطايا الأصلية، بمعنى أن الطفل مادة مستعصية تتطلب التقييم أكثر مما تتطلب الإرشاد. هذه هي الرؤيا التي تنبثق منها معظم طرقنا التربوية، والتي تحدد مناهج التربية. العتيقة. أو التقليدية. أما المناهج الحديثة فتأخذ بعين الاعتبار طبيعة الطفل الخاصة، وتعتمد على قوانين الشوء النفسي للفرد وقوانين نموه.

رغم ما سبق التذكير به، لا بد أن نتفاهم جيدا فيما نقصد: فالذاكرة والطاعة السلبية وتقليد الراشد، وبشكل عام كل عوامل التلقي، هي سمات طبيعية للطفل، مثلها مثل نشاطه العفوي، ولا يمكن القول بأن المناهج التقليدية، مهما كانت في بعض الأحيان منافية للبيكولوجيا، قد أهملت ملاحظة الطفل من هذه النواحي، فمعيار التمييز بين فن التربية التقليدي وفن التربية الحديث يجب البحث عنه إذن في مجمل التصور الذي يكونه المربي عن الطفل ضمن إطار كل منهما، وليس في استعمال هذه الخاصية، أو تلك من خصائص العقلية الطفلية.. فبقدر ما نفهم أن للطفولة نشاطها الفعلي وبقدر ما نفهم نمو الذهن في ديناميته، بقدر ما نجعل من العلاقة بين الأفراد المراد تربيتهم، وبين المجتمع علاقة تبادلية: ومن ثم يميل الطفل إلى الاقتراب من حالة الراشد، لا يتلقى المعرفة، وقواعد الفعل الحسن جاهزة تماما، وإنما باكتسابها من خلال مجهوده وتجربته الشخصيتين. وبالمقابل، ينتظر المجتمع من الأجيال الصاعدة على هذا المنوال ما هو أحسن من التقليد: الاغتناء

إذا كانت المناهج الجديدة في التربية تُعرف إذن بالنشاط الحق الذي تخلقه لدى الطفل، وكذا بالسمّة التبادلية للعلاقة التي نقيّمها بين الناشئة، وبين المجتمع الذي نؤهلهم له، فإن مثل هذه النظم ليست بجديدة، فقد استشف كل المنظرين الكبار تقريبا في تاريخ التربية هذا الجانب أو ذاك من هذا الجانب أو ذاك من الجوانب المتعددة لتصوراتنا..

لقد طالب الجميع، وباستمرار، بتكييف المدرسة مع الطفل، أما الاعتراف بأن الطفل يتمتع بملكة نشاط حقيقي، وأن التربية لا يمكن أن تنجح إذا لم توظف وتعمق فعليا هذه الملكة، فذلك أمر أقر به الجميع منذ روسو، والدور الذي بقي منوطا بسكولوجيا القرن الحاضر، والبيداغوجيا المتولدة عنها، هو بالضبط وضع تأويل إيجابي للنمو العقلي والنشاط النفسي.

الحقيقة أن البيداغوجيا انبعثت من الروح العامة للأبحاث السيكولوجية، وبشكل عام أيضا من مناهج الملاحظة نفسها، بقدر ما انتقلت هذه المناهج من مجال العلم الخالص إلى مجال التجريب المدرسي.

فإذا كان كل من ديوي، وكلاباريد، ودوكرولي هم من الأسماء البارزة في عالم السيكولوجيا كمؤسسين لمدارس، وكمخترعين لتقنيات تربوية دقيقة، فإن د. منتسوري قد اكتفت من جهتها بدراسات انثروبولوجية، وطبية سكولوجية جادة حول الأطفال غير العاديين كما وضعت مبادئ أولية في السكولوجيا الاختبارية، لكن مهما كان الرابط بين سيكولوجيا الطفل، والأفكار البيداغوجيا الرائدة عند المجددين الأساسيين فإن الذي لا شك فيه هو أن التيار الكبير للسكولوجيا التكوينية الحديثة هو منبع المناهج الحديثة.»

تحليل النص ومناقشته:

يحفل تاريخ التربية بأسماء علماء غيروا مسار التربية وجعلوا هذا العلم ملائما لحركة التاريخ، فمنذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ارتاد هذا العلم مفكرون سعوا من خلال آرائهم، وأفكارهم إلى دفع التربية إلى أشواط كبيرة من التقدم، لإنقاذ وضعية التربية غير المرضية.

من هؤلاء الرواد جان بياجيه الذي مثل مدرسة اصطلاح على تسميتها بالمدرسة السويسرية، والتي أدلت بدلوها المؤثر في مجال التربية، وعلى المستويين النظري والعملي. ولعلنا نتساءل عن الإسهامات التي قدمتها هذه المدرسة، أو ما المشروع التربوي الذي سعت إلى تحقيقه، أو ترغب في تنميته؟ وما المفهوم الذي ستقدمه للتربية؟

- إننا مع بياجيه سنقتصر على ما اهتم به في مجال العلاقة بين التربية وعلم النفس.

إذ بدأ بياجيه بتقويم نقدي لمفهوم التربية المحافظة الذي يعني: «تكييف الطفل مع الوسط الاجتماعي للراشد أي تحويل التشكل النفسي البيولوجي للفرد وفقا لمجمل الحقائق المشتركة التي ينسب لها الوعي الجماعي قيمة ما.. والراشد.. تصور التربية وكأنها نقل للقيم جيلا عن جيل، واهتم المربي أولا بأهداف التربية أكثر من اهتمامه بتقنياتها، أي بالرجل الكامل أكثر منه بالطفل وقوانين نموه» (٢)

وهكذا ففي التربية التقليدية كان ينظر إلى الطفل كرجل صغير، يجب تعليمه، وتهذيبه أخلاقيا، فالمدرسة التقليدية تفرض على التلميذ ما يجب أن يعمل من وجهة نظرها، وكما تريد، وهذا العمل المفروض بدعة منافية لمعطيات علم النفس. وبالطبع هذا ما يرفضه بياجيه، لأن التربية التقليدية تتجاهل خصوصية الطفولة، وطبيعتها، فالتربية عند بياجيه ليست تلك التي تقوم على تشريب الطفل مجموعة من القيم، والمعتقدات، والعادات السائدة في مجتمع الكبار، وإنما نبه إلى أن التربية لا يمكن أن تعطي مردودا إيجابيا إلا إذا أعطت الفرصة للطفل أن يعيش طفولته ويحياها، إن التربية عنده هي: تكييف الفرد مع البيئة الاجتماعية المحيطة به، وذلك عن طريق توظيف ميول الطفولة نفسها، وكذا النشاط التلقائي الوثيق الصلة بالنمو الذهني (٣)، ويلاحظ أن للعلاقة التي تنشأ في التربية حَدَّين:

- علاقة أحادية الجانب يحكم فيها على الطفل أن يتلقى من الخارج ثمرات معرفة الراشد، وأخلاقه الجاهزة، وبالتالي تكون العلاقة التربوية قائمة على الضغط من جهة، والتلقي من جهة ثانية بحيث يكون إنجاز الطفل نسجا لنموذج خارجي أكثر مما يكون نشاطا حقيقيا، وتلقائيا. سبب ذلك هو الاعتقاد أن التربية مجرد نقل للقيم عن جيل الكبار والتفكير، والإحساس، وأكثر من ذلك كله فقد برهن روسو أن الإنسان لا يتعلم شيئا إلا عن

طريق الاكتساب النشط، ولهذا كان من الضروري إتاحة الفرصة للطفل كي يعيد اكتشاف العالم، لكن هذه الآراء لم تكن سوى قناعة سوسولوجية، إذ يرى روسو أن عزل النمو الفردي عن الوسط الاجتماعي، وقد حاول بعض المفكرين التربويين من بعده أن يتداركوا بعض نواقصه كبستالوزي الذي حاول أن يصحح روسو في نقطة حاسمة، وهي: أن المدرسة مجتمع حقيقي يكفي فيه الإحساس بالمسؤولية، ومعايير التعاون لتربية الطفل دون حاجة إلى عزل التلميذ في فردانيته بدعوى تجنب الضغوط المضرة.

مما تقدم نلاحظ أن ما كان ينقص روسو في مفهوم التربية، هو سكيولوجيا النمو العقلي، وفي الوقت نفسه نرى بستالوزي قد تجاوزه، فقد كان يرى ضرورة التدرج من البسيط إلى المركب في كل تخصصات التعليم، في حين نعلم اليوم أن مفهوم البسيط مرتبط ببعض العقبات الراشدة، وأن الطفل يبدأ بالشمولي وغير المختلف، وهكذا نجد عند فروبل تعاضدا واضحا بين فكرة التربية النشطة، وتطبيقاتها الفعلية. وهذا يدفعنا إلى الاستنتاج أن فارقا أساسيا بفصل التربية الحديثة المرتبطة بالسكولوجيا عن المحاولات السابقة التي أضحت هي الأخرى مرحلة تجاوزتها التربية الحديثة.

فالمناهج الحديثة ما هي إلا ردة فعل للتغيير العام الذي طرأ على الأفكار حول الشخصية الإنسانية، وضمنها نشأت النظرة الجديدة إلى الطفولة، فقديمًا كنا نتجاهل الطفل ونعده صفحة صماء نطبع عليها ما نشاء، أما اليوم فنعتزف به، ونعده شريكا عاملا يفعل ما يشاء بكل حرية، على حسب رغبته، وميوله، مع الإرشاد عند الحاجة. فالتربية الحديثة تتطلب معرفة الطفل، ودراسته قبل التعرف على نظريات التربية، وطرائق التدريس، فمعرفة الطفل تساعد في فهم النظريات، وطرائق تنفيذها، فالطفل كائن حي نشط، قابل للنمو مستعد لأن يؤدي ما تتطلبه بيئته منه.

- علاقة تبادلية، وهي على عكس الأولى تسعى إلى تفهم وضعية الطفل النفسية وتؤمن أن للطفولة نشاطها الفعلي، وبقدر ما يفهم نمو الذهن ودينامياته نجعل هذه العلاقة تبادلية، ومن ثم يميل الطفل إلى الاقتراب من حالة الراشد باكتساب المعرفة. من خلال مجهوده، وتجربته الشخصيتين لا عن طريق نلقبها كمعرفة جاهزة

إن العلاقة التبادلية بين الطفل، والمجتمع هي ما تسعى إليه مناهج التربية الحديثة وتؤكد عليه، ويرى بياجيه أنه على الرغم من حداثة هذا المنهج فإن نظم التبادلية هذه ليست كلها جديدة، فبعض ملاحظها نجده في المذهب التوليدي عند سقراط، الذي يعتمد على نشاط التلميذ أكثر من خضوعه، ونجد عند جان جاك روسو شيئاً من هذا، وذلك إذا انطلقنا من إيمانه بسلامة الطبيعة، وفساد المجتمع، وأن الطفولة طبيعية، والنمو العقلي يخضع لقوانين ثابتة، ومن هنا كان على التربية توظيف هذا الميكانيزم بدل مخالفة مساره، ومن خلال ذلك استنتج أن لكل فئة عمرية مقوماتها، وخصائصها، والطفل وفق هذا الاستنتاج له طرائقه الخاصة في النظر، وأما اللعب فهو الطريقة التي أعددتها الطبيعة لتظهر ميوله، واستعداداته الجسمية، والعقلية، وهذا ما نادى به كل من روسو، وبستالوزي، وفروبل، وهربارت قديماً، كما نادى به «جون ديوي»، و«مونتسوري» حديثاً.

تبنى المناهج الحديثة على أساس ولادتها المتزامنة مع سيكولوجيا الطفل، وبتتبع لأهم تطوراتها، وبالطبع كان لنظريات علم النفس مكانة مهمة في الأبحاث التربوية أواخر القرن التاسع عشر، فقد لوحظ أن الدراسات البراغماتية في أمريكا أكدت على دور العقل في العمليات الذهنية، كما أن منتسوري توصلت إلى خلاصة أساسية منها أن الطفل يتعلم في المراحل الأولى من خلال الفعل أكثر مما يتعلم بالفكر. وتزامن هذه الأعمال ببيان فكرة العمل القائم على الاهتمام، وفكرة النشاط الشخصي كانت متوافرة في سيكولوجيا أواخر القرن التاسع عشر، غير أن النقلة الحقيقية في ميدان المناهج الحديثة كانت على يد «كرشتتاينر» على وجه الخصوص.

تسعى التربية الحديثة اليوم إلى تسهيل تكيف الطفل مع البيئة الاجتماعية المحيطة به، بتوظيف ميوله نفسها، وبتوظيف النشاط التلقائي الوثيق الصلة بالنمو الذهني، وهكذا لا يمكن فهم التربية الجديدة إلا في إطار التحليل المفصل لمبادئها، وفحص صلاحياتها السيكولوجيا المتصلة بنمو الطفل. ولهذا تطالب التربية الحديثة بمعاملة الطفل ككائن ذي إرادة مستقلة، وأن تؤخذ ذهنه الخاصة في الحسبان، ومن ثم دعت إلى جعل مجهود التلميذ ينبع من ذاته دون أن تفرض عليه أشياء لا طاقة له بها، كما دعت التربية الحديثة إلى

مراعاة أطوار النمو الذهني، وهكذا فإن أي محاولة لاختصار نمو التلميذ أو تسريعه يعتبر مضيعة للوقت لأنه من اللازم إيجاد المعلومات الملائمة لكل طور، وتقديمها بشكل قابل للاستيعاب في البنية الذهنية للطور المعين. فلو فرضنا أن النمو مرتبط بالتجربة الفردية وحدها، وبتأثيرات الوسط الطبيعي، والاجتماعي لقلنا أنه بإمكان المدرسة اختصار المراحل إلى حد تحقيق التماثل بين الطفل، والراشد.

إن ما يمكن تسجيله للتربية الحديثة المرتبطة بعلم النفس هو اهتمامها بالتلميذ، ودعوتها لإتاحة الفرصة للتلميذ ليشترك بمحض نشاطه الذاتي في اكتساب المعارف، ولذلك فإن التربية الحديثة لا تضع الطفل في المقدمة، والمادة في المؤخرة، بل تضعها جنباً إلى جنب، وتعترف بالعلاقة التامة بينهما.

ولا يمكن فهم التربية الجديدة إذن، من حيث طرقها، وتطبيقاتها، إلا إذا اعتنينا بالتحليل المفصل لمبادئها، ونلخص صلاحيتها السيكولوجية في أربع نقاط على الأقل: مدلول الطفولة، بنية فكر الطفل، قوانين النمو، وآلية الحياة الاجتماعية للطفولة.

هوامش العنوان السابق:

- ١ - جان بياجيه (١٩٩٨): علم النفس وفن التربية: ترجمة محمد بردوزي، دار توفال للنشر، الدار البيضاء، ص ١٠٣، ١٠٩.
- ٢ - جان بياجيه: علم النفس وفن التربية، المرجع السابق، ص ١٠٣.
- ٣ - جان بياجيه: علم النفس وفن التربية، مرجع سابق، ص ١١٣.
- ٤ - محمد عطية الأبراشي: الاتجاهات الحديثة في التربية، ص ٥.
- ٥ - جان بياجيه «من توصية الندوة الدولية حول التربية العمومية» ص ٩٧.